الفصل الأول

بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء

لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٥٧١ م .

. . . . . .

. . . . . .

إنه عام الفيل . . زحفت فيه جيوش الحبشة بقيادة أبرهة من جنوب شبه الجزيرة ـ اليمن ـ الذي كانت قد أحتلته سنة ٥٣٠ م ، زحفت ، بتحريض من بيزنطة ، الى وسط شبه الجزيرة العربية لتحتله وتحتويه ، فهذا الوسط هو كل مابقي للعرب بعيدا عن الاحتواء من الغزاة . . فالفرس كانوا يسيطرون ويهيمنون على مشرق شبه الجزيرة ، والروم البيزنطيون على شمالها وغربها ، والحبشة قد احتلت الجنوب ، ثم ها هي ، ومن ورائها بيزنطة ، قد نهضت لاحتلال القلب ، وذلك حتى يخمد هذا الجسد تماما أو ، على الأقل ، يستغرق في سبات عميق وطويل ، وحتى يتم للحبشة وبيزنطة السيطرة على جميع مراحل التجارة العالمية : (عدن ـ صنعاء ـ مكة ـ الشام ـ آسيا الصغرى ـ فالقسطنطينية) فيحققون بذلك ميزة كبرى في الصراع التاريخي ضد الفرس الذين كانوا يتحكمون في الطريق الثاني لهذه التجارة بسيطرتهم على العراق ! . . .

وكما كان الجنوب ـ بعربه الحميريين ـ رازحا تحت النير الحبشي ومكبلا

وعـاجزا عن حمـاية القلب . . كـذلك كـان الجناحـان ، في الشـرق والغـرب ، فالتبعية للروم والفرس تستنزف طاقتهما ، بل وتستنزفها في صراع اصبح عربهما ، الغسـاسنة واللخميـون ، بعض وقوده . . فـالحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) يقود قومه الغساسنة في الحرب ضـد المنذر الثـالث اللخمي ملك الحيرة لحسـاب الـرومان . . وبعـد أعوام ـ في سنـة ٥٤٤ م ـ يـأسـر المنـذر اللخمي أحـد أبنـاء الحارث الغساني فيقـدمه قـربانـا للإلهـة « العزى » ! . . ثم يعـود المنذر الغسـاني ـ ابن الحـارث بن جبلة ـ فيدمـر عاصمـة اللخميـين ويحـرقهـا ، ايضـا لحسـاب الرومان ، الذين يكافئونه فيضعون على رأسه تاجـا ! . . و « يوم حليمـة » الذي فاضت الأحاديث بذكره في « ايام العرب » وملاحمهم ، وذهب مثلا يقول : (ما يوم حليمة بسر !) هو واحد من أيام تلك الحرب التي اقتتل فيها العرب لحساب كل من فارس والروم ، « فحليمة » هذه ، هي بنت الحارث الغسـاني ، جلست تستعـرض ، في زينتهـا وبهـائهـا ، جيـوش ابيهـا ، وطيبتهـا بـالـطيب بيـديهـا الجميلتين ، وهي زاحفة إلى ميدان القتال كي تحارب العرب اللخميين؟! . .

هكـذا كان حـال العرب في ذلـك التاريـخ . . مستضعفـون يخـافـون ان يتخطفهم الناس ، كـما وصفهم القرآن الكـريم . . لكن عنف الخطر وشـدته ، وجدية التحدي الذي طرح في الساحة العربية سؤال: نكون؟ او لا نكون ؟! قد أحدث في جسد هذه الجماعة الانسانية اختلاجات اخرجت من الاعماق ما هو كامن وأصيل ، فكانت هزة الجسم واختلاجته ورعشته اذا مسه الخطر الشديد ، فنفض بهزته هذه عن كاهله اخطر السلبيات وأثقل القيود ، وبدأ المسير في اتجـاه حركة التاريخ ، واضعا قدمه على أول الطريق . .

* فالطريق أمام جيش ابرهة لم يكن معبدا ولا مفتوحا ، بل قاومته قبائـل عربية كثيرة وهو صـاعد نحـو مكة ، وكـان أعراب البـادية يغيـرون على جيشـه ياسرون منـه الجند فيسـترقونهم ، وينهبـون منه المؤن والمعـدات . . صنع ذلـك العرب اليمنيون بقيادة « ذو نفر » . . وبعد هزيمتهم قاد المقاومـة للجيش الغازي « نفيـل بـن حبيب الخثـعـمي » ومـن خلفـه قـبـائـل خثـعم « نـاهس »

و « شهران »[1] . . . والعربي الوحيد الذي خان قومه ، وقام بمهمة الدليل لجيش أبرهة ، وهو « أبو رغال » ، خلد العرب خيانته ، وجعلوا من رجم قبره بالحجارة سنّة قاربت شعائر الدين ، حتى لقد ضرب بها الشاعر جرير المثل في هجائه للفرزدق فقال :

اذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر ابي رغال !

* ولم يكد الفشل يصيب حملة ابرهة على وسط شبه الجزيرة ، حتى هبت ضده وضد الاحتلال الحبشي مقاومة عرب اليمن في الجنوب ، فلقد نهض القائد العربي سيف بن ذي يزن (١١٠ ـ ٥٠ ق . هـ ٥١٦ ـ ٥٧٤ م) لتحرير اليمن واجلاء الأحباش ، واستعان على ذلك بما بينهم هم وبيزنطة وبين الفرس من صراعات وتناقضات . . ونجحت ثورته في تحرير الجنوب .

* وكانت رئاسة حكومة مكة في ذلك التاريخ ـ ومنذ سنة ٥٢٠ م ـ لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧ ـ ٤٥ ق . هـ ٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) ، فانتهز فرصة الانتصار الذي احرزته اليمن ضد الاحباش ، بعد الفشل الذي أصاب حملة ابرهة على مكة ، ورأس وفدا من حكومتها ومن أشراف قبائل وسط شبه الجزيرة ، وذهبوا الى سيف بن ذي يزن ، الذي استضافهم لأكثر من شهر ، دارت بين الفريقين فيه محادثات عن تضامن عرب الجنوب والوسط لحماية طريق التجارة ، ولإحكام القبضة العربية الخالصة عليه ، وللتصاعد بما تم من انتصارات نحو مزيد من الانتصارات التي تحول اتجاه الريح في شبه الجزيرة وتحول بين العرب وبين التمزق والشتات الذي جعلهم فرائس للغزاة ، وتدفعهم الى التضامن والتآلف والتآزر الذي ينقذهم من التحديات التي تكاد **تطبق عليهم القبضة وتحكم حول عنقهم الخناق !** . . .

* وحول هذا التاريخ شهدت ظاهرة التمزق العربي ، الذي جسدته المنازعات والحروب القبلية ، تطورا في اتجاه جديد . . فلقد اتفقوا على هدنة سنوية مقدسة ، هي الأشهر الحرم (رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم)

---

(١) د . محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٤٠ طبعة القاهرة ، الثانية سنة ١٩٧٥ م .

يسود فيها السلم شبه الجزيرة ، وتنمو فيها الروابط وتنعقد فيها الأواصر ويعلو صوت العقل والحكمة وتداوى الجراح . . .

وفي هذه الأشهر الحرم كانت تقام أسواق العرب ، التجارية والأدبية ، الأمر الذي تصاعد بسلطان اللغه الأدبية المشتركة على حساب اللهجات التي اخذت في الضمور حتى في الربوع والنجوع ومضارب الخيام . .

وفي هذه الأشهر الحرم أيضا كان يتم الحج الى مكة . . ولقد أدى انتظام هذه الشعيرة العربية وتمكن كل القبائل ، في ظل السلام ، من ممارستها إلى أن أقامت كل قبيلة لمعبودها تمثالا حول الكعبة بالمسجد الحرام ، وذلك حتى يجد كل طائف نسخة من معبوده عند الكعبة ساعة الطواف ، فتحولت الكعبة بذلك الى « معبد موحد » للعرب ، جسد بداية توحيد هوية تلك الجماعة البشرية التي كان تعدد آلهتها رمزا لتمزق هويتها والشتات المستشري في بنائها القومي . . لقد بدأت ظاهرة التمزق في الانحسار ، واخذت المؤشرات تتجه نحو المزيد من التآلف في الشخصية العامة ، ونحو المزيد من الخيوط التي توحد وتنسج كلا واحدا من ذلك الشتات الذي مزقته الحروب والصراعات . .

* ومرة أخرى لنتأمل رقم ذلك العام ، عام غزوة الفيل ، سنة ٥٧١ م . . ففي هذا العام الذي شهد بداية هذا التحول في الظاهرة العربية من : خضوع الفريسة للتحدي إلى انتفاض جسدها وروحها بعوامل المقاومة لذلك التحدي . . في هذا العام ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، عليه الصلاة والسلام ؟! . .

* وحول التاريخ ، ايضا ، تصاعدت حركاتُ الرفض للديانة الوثنية العربية، تلك التي كانت تجسد بآلهتها المتعددة الشتات والتمزق في هوية هذه الجماعة من الناحية القومية . . وتطلعت الأبصار واشرأبت البصائر من الحكماء الذين صنعت نفوسهم واحتوت قلوبهم وقولهم هموم الجماعة التي أحدقت بها المخاطر واحاطتها التحديات ، تطلعت أبصارهم واشرأبت بصائرهم إلى دين جديد ، توحد عقيدته ولا تفرق ، وتؤلف شريعته ولا تمزق . ولقد أرادوه دينا

عربيا ، يحمل ، مع جوهره الإلهي وحقيقته الربانية ، هالات المجد القومي للعرب الأقدمين . . فكان أن جد البحث والتنقيب عن بقايا ديانة التوحيد لابراهيم الخليل ، عليه السلام ، فهو جد العرب العدنانيين ، ووالد أبيهم اسماعيل ، عليه السلام ، وهما اللذان رفعا القواعد من البيت ، بمكة ، فأقاما للعرب أول بيت وضع للناس . . . ومن هنا بدأ هؤلاء الحكماء ، والمتأملون ، وأصحاب النفوس الصافية ، والحاملون هموم أمتهم ، بدأوا يصبأون أي ينحرفون عن الشرك والتعدد الى التوحيد ، وينصرفون ، رافضين ، عن إجلال الاصنام وتقديسها وعبادتها إلى عبادة الله الواحد ، كل وفق ما تيسر له بتأمله الذاتي ، مستعينين على ذلك بما تيسر لهم جمعه من بقايا ديانة ابراهيم عليه السلام . .

كان العرب يريدون دينا حقا ويتطلعون الى شريعة إلهية . . ولكنهم كانوا ينشدون في الدين الذي يريدونه وفي الشريعة التي يتطلعون اليها ، العون القومي على اعادة مجدهم وتأليف وحدتهم كي ينهضوا ويصمدوا في مواجهة التحديات . . ومن هنا كان تطلع « الحنفاء ـ الصابئة » ، إلى شريعة ابيهم اسماعيل وجدهم ابراهيم . . وكان رفضهم لكل من المسيحية واليهودية ، على الرغم من اكتمال بنائها الفكري والديني أكثر بكثير من تلك البقايا التي جمعها « الحنفاء » من ديانة ابراهيم .

لم يجد العرب الحل الذي ينشدونه ويتطلعون اليه في اليهودية ، على الرغم من اعتناق قطاعات من قبائلهم لها وتدينهم بها ، وخاصة في يثرب . . لأن اليهودية بالنسبة لهم كانت دينا اجنبيا . . فهي قد تحولت ، على يد العبرانيين ، الى دين خاص بأبناء إسحق ، والتوحيد فيها شابته شائبة وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله ، فجعلوه إله بني اسرائيل ، لا إله العالمين ! . . ثم انها قد تحولت ، على يدهم ، إلى « جيتو » فكري ، ففقدت القسمات العالمية والانسانية التي هي ابرز القسمات في الدين الإلهي الواحد ، كما بشر به الرسل والأنبياء . . بل أن اليهود في شبه الجزيرة ، قد جعلوا من دينهم سلاحا ضد العرب ، وطالما استعرضوا به خيلاءهم وكبرياءهم ، كأهل كتاب ، مستهدفين اخضاع العرب وإذلالهم وتعميق الشتات والتمزق في نفوسهم . . حتى ليكاد المرء أن يجزم بأن

العرب قد رأوا في هذه اليهودية واحدا من التحديات التي فرضها عليهم الأعداء في ذلك التاريخ ! . .

ولم يجد العرب ، كذلك ، الحل الذي ينشدون واليه يتطلعون في المسيحية ، وذلك على الرغم من أنهم عرفوها في رحلات التجارة شتاء إلى الجنوب ، وصيفا الى الشمال . . وعلى الرغم من تناثر صوامع للأحبار والرهبان على مشارف مدن لهم وحول الطرق التي تشق الصحراء . . بل وعلى الرغم من تدين قبائل وقطاعات من قبائل بهذا الدين . . ذلك إن المسيحية ، كانت بالنسبة لعرب ذلك التاريخ ، هي ديانة الروم البيزنطيين واحباش بني يكسوم . . إنها الديانة والفكر و « النظرية » للغزاة الذين يفرضون عليهم التحديات ! . . ومن هنا لم يجد فيها العرب الحل الذي ينشدون ، بل لعلهم قد رأوا فيها عكس الذي يريدون ! . .

وفي هذا المناخ ، وتلك الملابسات جدّ نفر من طلائع هذه الجماعة العربية في البحث عن « الهدى » و « الرشاد » في دين إلهي ، وشريعة ذات طابع قومي عربي ، ينهض بها العرب وتنهض بهم في مواجهة ما فرض عليهم من تحديات . . فكان ان اتسعت بوسط شبه الجزيرة ، وهو الذي احتفظ بهويته العربية الأكثر نقاء ، اتسعت حركة « الحنفاء » . .

فخالد بن سنان العبسي : يظهر بنجد ، ويدعو قومه إلى دين جديد . . واذا كانت مصادر التاريخ لا تسعفنا بما يحدد ملامح شريعته ، إلا أنها تذكر لنا أن ابنته قد عاشت حتى أدركت، وهي عجوز ، ظهور الإسلام ، فوفدت مع وفد قومها الى المدينة مسلمين يبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتضيف هذه المصادر إن الرسول عندما قالوا له : هذه ابنة خالد العبسي ، نهض ، فاستقبلها ، وفرش لها عباءته واجلسها عليها ، قائلا لها : « مرحبا بابنة نبيّ ضيعه اهله ![1] » ـ فهو ـ ان صحت رواية الرواة ـ « نبي » وليس « بمتنبىء » . . نبي عربي جاء ليبشر قومه بشريعة جديدة ، غير اليهودية

(١) الزركلي (الاعلام) طبعة بيروت ، الثالثة .

والنصرانية . . وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾[1]

وزيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق . هـ ٦٠٦ م) : رفض ، هو الآخر ، عبادة الأصنام ، ولقي رهبان النصرانية فحاورهم ، ثم رفض النصرانية ، والتقى بأحبار اليهودية فجادلهم وعزف عن يهوديتهم . . وحرم الخمر على نفسه ، ودعا قومه إلى تحريمها ، ونهاهم عن عبادة الأوثان ، وكان يتأمل ، معتكفا ، ويتعبد في كل عام شهرا ، هو شهر رمضان بغار حراء . . ولقد مات زيد هذا ، وهو في طريقه إلى الشام ، طائفا يبحث عن الحق ، ويتأمل السبيل إلى دين جديد . . . مات قبل نزول الوحي على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بأربع سنوات . . وعندما تحدث عنه الرسول قال : « انه يبعث يوم القيامة أمة وحده » ! . .[2]

وأبو ذر الغفاري (٣٢ هـ ٦٥٢ م) : يسلك ، بالتأمل ، درب « الحنفاء » ، فيصل إلى عقيدة التوحيد ، فيعبد الله الواحد ، بل ويصلي له قبل ظهور الإسلام بسنوات ثلاث . . . وعندما سمع بدعوة محمد ، في مكة ، وهي لا تزال في طور السرية ، ذهب اليه مؤمنا ، ومسلما عليه بتحية الاسلام ، قبل أن يخاطبه الرسول او يدعوه ! . .[3] لقد كان ينتظره ، ويتطلع لقدومه منذ سنوات ، وكان بذلك يجسد تطلع هذه الأمة إلى شريعتها التي تمثل بالنسبة لها طوق النجاة من تحديات الأعداء الذين جعلوا حتى من ديانات السماء قيودا أرادوا بها ازهاق الروح العربية واحتواء هذه المنطقة ، مجوسا فرسا كان هؤلاء الأعداء ، أم نصارى من الروم والأحباش . .

لقد كانت شبه الجزيرة العربية ، وخاصة وسطها ، تشهد في ذلك التاريخ سباقا مع الزمن ، وصراعا مع التحديات . . ومن هنا كان تطلع أبصار

---

(١) غافر : ٧٨ .

(٢) الأصفهاني (الأغاني) ج٣ص ٩٧٣ . طبعة دار الشعب . القاهرة .

(٣) (صحيح مسلم) بشرح النووي ج١٦ص٢٧ . طبعة محمود توفيق القاهرة . وانظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ٢١ . طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٤ م .

حكمائها وبصائرهم إلى امر جديد ، وبالتحديد الى بعثة نبي جديد . . كانت آلام المخاض تنبىء بحتمية التغيير ، ومن هنا كان التطلع ، من الجميع ، لهذا الرسول القادم . . نعم ، من الجميع . . وان اختلفوا : أعربيا يكون ؟ أم من العبرانيين ؟ . . وان كان عربيا ، فمن أي القبائل والعصبيات ؟ أعظيم مكة : الوليد بن المغيرة ؟ أم عظيم الطائف : عروة بن مسعود الثقفي ؟ . . أم شريفا من قريش ، لكنه من البسطاء والفقراء ؟ . . ومن الذي يسبق إلى دعوته مستجيبا لها ، فتكون له الحظوة ويكون له السبق والنفوذ ؟ العرب الذين يتطلعون لجديد يعتقهم من الوثنية والتمزق وينجيهم من خطر التحديات ؟ أو أولئك الذين اتخذوا اليهودية دينا ؟ . .

كان هناك ، اذن ، هذا التطلع ، وهذا السباق مع الزمن ومع التحديات . . ولنتأمل رواية ابن اسحاق (١٥١ هـ ٧٦٨ م) لأحداث بيعة العقبة التي كانت بمثابة « العقد السياسي على تأسيس الدولة العربية الاسلامية الأولى » بين عرب يثرب ، من الأوس والخزرج ، وبين الرسول ، صلى الله عليه وسلم . . « فبينما الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عند العقبة ، لقي رهطا من الخزرج . . فقال لهم :

ـ من انتم . . ؟

ـ نفر من الخزرج . . .

ـ أمن موالي يهود ؟ ! . . .

ـ نعم ! . . »

وتمضي الرواية : « وكان يهود معهم في بلادهم . . . **وكانوا قد غزوا بلادهم** ، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : **إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم** ! . . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : **يا قوم ، تعلموا ، والله ، أنه**

النبي الـذي توعـدكم به يهـود ، فلا تسبقنكم اليـه ! . . فأجـابـوه فيـما دعـاهم اليه؟!»[1] .

فالعرب كانوا يتطلعون إلى نبي . . وكـذلك اليهـود الذين كـانوا يمثلون ، هم الآخـرون وضـع الغـزاة في تلك البـلاد ، حيث حـولـوا عـرب المـدينـة إلى « مـوالي » ! . . وكان هؤلاء الغـزاة ، الذين يمثلون واحـدا من التحـديـات التي فرضت على العرب ، يريدون الاستئثار بالنبوة المنتظرة لتكون ، هي الأخـرى ، تحديا جديدا ضد الجماعة العربيـة ، لكن المعانـاة والعبقريـة والالهام قـد دفعت عرب يثرب إلى السبق ، فسبقوا إلى الايمان بـالنبي الجديـد ، (إنه النبي الـذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه !) ـ وعقـدوا بيعة العقبـة ، مع الـرسول ، عليـه الصلاة والسـلام ، فكانت الـدولة العـربية الاسـلاميـة الأولى ، التي بـدأ بظهورها طور جديد تماما ، وحاسم تمامـا ، في تاريـخ العرب ، بـل والانسانيـة جمعاء ! . . .

وبالطبع ، فان الذي يعني هذا البحث من ذلك الحدث الـذي اهتزت لـه أرض شبه الجزيرة وجاوبتها في ذلك سماؤ ها ، ليس جانبه الديني ، وانما الـذي يعنينا هنا ما كان له من طابع قومي جـاء في اطار المـوقف الايجابي الـذي اتخذتـه الجماعة العربية تجاه ما كان مفروضا عليها من تحديات . .

فهـا هي القيادة العـربية ، التي كـان العرب ، الحنفـاء والحكـماء والـذين تقض الأخطار والتحديات مضاجعهم ، يتطلعون اليهـا قد ظهـرت تبشر بـدعوة الاسـلام ، دين الحنيفيـة المسلمـة ، دين ابـراهيم واسمـاعيـل . . وهي قيـادة قرشية ، لهـا كل مـا لقريش من شـرف ونفوذ ، وهي ، من ثم مكيـة ، لها وزن مكة ، ام القرى في شبه الجزيرة ، ووسطها بالذات . .

حقـا إن محمـدا ، صـلى الله عليـه وسلم ، كـان في الأسـاس وقبـل كـل شيء ، نبي الله ورسوله . بعثه الله الى الناس كـافة ، وليس للعـرب وحدهم ، والدين الذي دعـا الناس اليـه هو دين الله الـواحد ، الـذي بشّر بـه كل الـرسل

---

(١) النويري (نهاية الأرب) ج١٦ ص ٣١٠ و ٣١١ . طبعة القاهرة .

والانبياء من قبل، وهو في هذا قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب توراة وانجيل، والـذي أوحاه الله اليـه ، في هذا الجـانب ، هـو الـذي أوحى إلى من سبقـه من المرسلين والأنبياء ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾[1] ﴿ شرع لكم من الدين مـا وصى به نـوحا والـذي أوحينا اليـك ومـا وصينـا بـه ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيمـوا الدين ولا تتفـرقوا فيه﴾[2] ، ففي عقائـد : التـوحيد ، والحسـاب والجزاء الأخـروي ، والعمل الصـالح . . . وهي اصـول الدين الإلهي الواحد ، لا خلاف ولا اختلاف بين جميع الرسل والرسالات . . .

لكن محمدا قد جاء بشريعة جديدة ، غير تلك التي تحولت من بعد عيسى على يد الرومان إلى قسمة من قسمات الحضارة الأوربيـة المادية . . . وغـير تلك التي تحـولت من بعد مـوسى على يـد العبرانيـين الى ما يشبـه الوثنيـة « للجيتو » اليهودي . . وهي شريعة اسلاميـة تمثل الاستجـابة لحـاجات الانسـانية المتـدينة عندما تبلغ سن رشدها فتستعين « بالعقل » استعانتها « بالنقل »، وتجد في العلوم المعتمدة على « البرهان العقلي » الثقة والطمأنينة التي تجدها في العلوم المؤسسة على « الوحي » . . ومن هنا فهي طور جديد في مسيرة الانسانية على درب رسالات السماء وشرائعها الدينية . .

وايضا . . فلم يكن ذلك كـل الجديـد في رسالـة الاسلام . . فمحمـد ، عليه الصلاة والسلام ، لم يكن يبشر بدعوته الجديدة في الفراغ ، ولا في ظـروف مواتية . . صحيح انه ، بالنسبة للعرب الذين تـطبق التحديـات على مصـائرهم وتهـدد الاخطار مستقبلهم ، يمثـل حاجـة طالمـا تطلعـوا اليها ، وضـرورة طـالمـا استشرفوها . . ولكن العصبية القبلية كانت هناك ، وهي تريد القيادة العـربية ، ولكنها تريدها من بينها هي ، ومن قبيلتها وعصبيتهـا . . فأبـو سفيان بن حـرب (٥٧ق . هـ ٥٦٧ - ٦٥٢ م) يلتقي بعـظيم ثقيف والطائف عـروة بن مسعـود الثقفي (٩ هـ ٦٣٠ م) فيسـأله رأيـه في محمد ودعـوته ، فـلا يجرؤ عـروة عـلى تكـذيب محمـد ، ولكنـه يقـول لأبي سفيـان : « مـا كنت لأومن لنبي ليس من

---

(١) فاطر : ٣١ .

(٢) الشورى : ١٣ .

ثقيف ؟! . . » فالعصبية القبلية كانت مصدرا لتيار رافض ، بل ومعاد ، لدعوة الإسلام . .

وكانت هناك ايضا المصالح الاجتماعية التي تستثمر الأوضاع الجائرة التي استشرت في شبه الجزيرة ، من الربا والرق والاستغلال . . الخ . . واصحابها قد رفضوا الاسلام ، لأن محمدا لم يكن من الأغنياء المستغلين ، ولأنه يبشر بأن ارادة إلهه : ﴿ ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1] . . وقديما قال اسلافهم ﴿ أنّى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟!﴾[2] فكانوا ،هم ايضاً ، مصدر تيار رافض لدعوة الاسلام . .

وكان هناك الذين ارتبطت مصالحهم ، المادية والاجتماعية والأدبية ، بديانة الشرك ، وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام . . وفي مكة كان نفوذهم كبيراً ، فهي موطن حج المشركين ومكان معارضهم واسواقهم التجارية ، واليها يجلبون الأموال والتجارات . . . وهذه الفئة قد أشفقت على رواج مكة المالي ، ومن ثم رواجهم هم ، من ذلك الدين الذي سيصرف عبدة الأوثان العرب عن تقديس مكة والحج اليها إن هي آمنت ، دونهم ، بالدين الجديد ، فكانت هذه الفئة ، كذلك ، مصدر تيار رافض للدين الجديد . .

ولقد تداخلت هذه المصادر وتشابكت هذه التيارات ، وقاد ملأ مكة وأشرافها ، بإسم هؤلاء جميعا ودفاعا عن كل تلك المصالح ، المعارضة والعداء والاضطهاد لمن آمن بالدين الجديد . . .

ومن هنا ، وامام هذه المقاومة التي بلغت ،' بعد الايذاء والمقاطعة ، الشروع في قتل الرسول ، والتصاعد بالاضطهاد إلى حد اقتلاع المؤمنين من بلدهم ، واخراجهم من أحب المواطن إلى قلوبهم بالهجرة من مكة إلى يثرب . . امام هذه الملابسات لم تقف الدعوة الجديدة عند حدود « الدين » ، لأن اصحابها

---

(١) القصص : ٥ .

(٢) البقرة : ٢٤٧ .

وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ « الدولة » سلاحا يدافعون به عن حق الجماعة المؤمنة وحريتها في التدين بالدين الجديد ، وفي هذه « الدولة » صنع المؤمنون النموذج الجديد الذي يجسد فكرهم الاجتماعي والسياسي الجديد . . وايضا بشروا بالفكر القومي العربي الذي كان بمثابة الفتح الجديد الذي يخرج العرب من تحت خطر التحديات القديمة ومخاطرها ، وشيئا فشيئا وضعوا هذا الفكر القومي ، الذي استنهضوا به العرب الى بعث جديد ونهضة كبرى تحت رايات الاسلام ، وضعوه في الممارسة والواقع والتطبيق . .

* ففي صفحات كثيرة من فكر الدعوة الجديدة والدولة الوليدة تتراءى لنا تلك « العملة الفكرية » التي « سكتها » ، فاذا أحد وجهيها يحمل « التوحيد الديني » للذات الإلهية ، على نحو بلغ في التنزيه والتجريد والنقاء ما لم يبلغه عند أمة من الأمم التي سبقت المسلمين على هذا الطريق . . وعلى الوجه الثاني للعملة نجد « التوحيد القومي والسياسي » للعرب ! . . فهم الأمة التي اصطفاها الله ، بعد أن اصطفى منها رسولها ، لتنشر توحيده ، وهي لن تستطيع ذلك الا اذا « وحدت » الله و « توحدت واتحدت » قوميا وسياسيا ! . .

* والقرآن الكريم يعرض التوحيد الديني الذي يوحد هوية المجتمع قوميا ، بعد ان كان تعدد الآلهة يرمز إلى تمزقها . . يعرض هذا التوحيد باعتباره السبيل إلى النجاة من مخاطر التحديات التي فرضها الأعداء ـ (الفرس والروم) ـ على العرب لحقبة طويلة من حقب التاريخ ـ ﴿ واذكروا اذ انتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[1] .

* وحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إلى عمه ابي طالب (٨٥ ـ ٣ ق . هـ ٥٤٠ ـ ٦٢٠ م) يتصاعد بهذه القضية إلى الحد الذي يجعل فيه « التوحيد الديني » ومن ثم « الوحدة القومية والسياسية » السبيل الذي يبشر به الاسلام كي ينتقم العرب من أعداء الأمس ، فرساً وروماً وبيزنطيين . . فهو

---

(١) الأنفال : ٢٦ .

يحدث عمه عن ما سيترتب على استجابة قومه لدعوته في هذا المجال فيقول : « يا عم ! ألا ادعوهم إلى كلمة يقولونها ، تدين لكم بها العرب ، وتؤدي اليكم العجم الجزية ؟! . . والله لتنفق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ! » .

فهو يغري قومه بوحدة تجعلهم السادة والقادة ، وتفتح امامهم الطريق لتسوية الحساب مع اعداء الأمس ، الذين فرضوا عليهم التحديات ، وأذلوهم ، وجعلوهم جندا مرتزقا وتابعا في الصراع التاريخي بين الفرس والاغريق والروم . .

وفي موطن آخر يجعل من هذه «البشرى» نبؤة مؤكدة التحقيق، فيقول: «إن امتي ستظهر على « الحيرة » وقصور كسرى ، وارض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » . وبشّر المسلمين بذلك » !(١) . .

* وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، بمكة . . وهو أمر قد يراه البعض « دينا خالصا » لا دلالة فيه ولا أثر على الطابع القومي الذي انطبع به الاسلام ، في تلك البقعة ، في ذلك التاريخ . . ولكنا نرى فيه ـ وسندنا القرآن الكريم ـ طابعاً قومياً عربياً ، ودليلاً واضحا على هذا الطابع لا تخطئه عين الباحثين . . بل لقد كان تحويل القبلة هذا تشريعا إلهياً تمنت حدوثه القلوب العربية المسلمة ، واشرأبت اليه العواطف والأفكار من قبل ابرام الله له والوحي الى رسوله به . . أليسوا هم الذين تطلعوا ، من الدعوة ، إلى دين جديد ، فسلكوا اليه بقايا دين جدهم ابراهيم وابيهم اسماعيل ؟! . . وأليست الكعبة ومسجدها الحرام وحرمها الآمن مكة مطمح أبصارهم وملتقى مشاعرهم ، وبقعتهم المقدسة ، ووواديهم الأقدس عبر تاريخهم الطويل ؟! ثم أليس جدهم ابراهيم وأبوهم اسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من هذا البيت العتيق ؟! . . فليس بالغريب ، اذن ، أن يتمنوا على ربهم أن تتحول قبلتهم في الصلاة عن القدس ، التي كانت حتى ذلك التاريخ في أسر الرومان البيزنطيين ، إلى

---

(١) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ج٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ .

الكعبة . . فلقد كانت « قبلتهم » قبل الاسلام ، وها هم ، مع بعثهم القومي الجديد ، يريدونها « قبلة » في الدين الجديد أيضا . .

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا الحدث الديني ، حدث تحويل القبلة ، فنعلم منه أن الرسول وقومه كانوا يرفعون الوجه لله داعين أن يشرع لهم ذلك ، وان تشريعه هذا كان استجابة إلهية يرضاها الرسول والمؤمنون ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** وان كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم إن الله بالناس لرؤ وف رحيم **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره** وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾[1] .

بل اننا لواجدون في هذه الآيات الكريمة ما يفيد بأن استقبال المسلمين لبيت المقدس ، في صلاتهم ، انما كان امرا مؤقتا ، ومرهونا بارادة الله أن يختبر طائفه من أهل الكتاب ، ليعلم من يستجيب منهم للشريعة المحمدية ، ومن ينقلب على عقبيه . . ومن ثم فان تحول القبلة الى ذلك المكان الذي هفَّت اليه تاريخيا قلوب العرب واحتضنته مشاعرهم هو الطبيعي ، والمقرر ، سلفا ، في علم الله ! . .

* وحتى يحقق المسلمون ذلك الانجاز التاريخي ، فيؤلفون أشتات القبائل في كلٍّ قومي واحد ، ويتجاوزون التمزق ، الذي أباح للتحديات المعادية أن تقوم وتستمر بوطأتها الثقيلة ، إلى الوحدة . . كان لابد من صفحة جديدة تحمل الى القوم مفاهيم جديدة عن « العربي » و « العروبة » . . فالعصبية القبلية والنعرات الجاهلية كانت بمثابة الثغرات التي سلكتها التحديات ، ومن ثم فلقد

---

(١) البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٤ .

ألقى الاسلام ، أو ألقت جوانبه القومية إلى الفكر العربي صياغات فكرية جديدة تستنهض الأمة لتجاوز ذلك الفكر الجاهلي المتخلف ، وتبشر بمفاهيم مستنيرة ، وغير عرقية ، وانما حضارية « للعربي » و « العروبة » . . حدث هذا منذ ذلك التاريخ البعيد! . .

فالرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ينكر المضمون ، « العرقي » للعروبة ، ويدعو الى اعتماد المضمون الحضاري رابطة ومعيارا لمن هو العربي ؟ ومن هم العرب ؟ فاللغة ، وهي وعاء للفكر والتراث والحضارة والذكريات . . هي المعيار والرباط الذي دعا الرسول إلى اعتماده بدلاً من « العرق » و«القبلية»، ذلك أن مجتمع شبه الجزيرة كان يضم «عرباً باللغة» والحضارة غير « العرب » بالعرق والجنس والدم . ومن ثم فان اعتماد المعيار الحضاري كان سبيلا ، لا لتجاوز النعرات الجاهلية والمفاهيم المتخلفة والمتعصبة فقط ، وانما ، أيضا ، لبناء كيان جديد وأوسع من ذلك الذي يمكن بناؤه على أساس من العرق والجنس . . وهي أيضا قفزة حضارية ، وتطور متحضر هام الى الأمام . . يبشر الرسول بهذا المفهوم الجديد عندما يخطب في الناس قائلا : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، **وليست العربية بأحدكم من اب ولا أم ، وانما هي اللسان (اللغة) ، فمن تكلم العربية فهو عربي ! »**[1] .

وتتوالى أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تنهي العرب عن التعلق بالنعرات الجاهلية والعصبيات القبلية . . « . . ما بال دعوى الجاهلية ؟! . . دعوها فانها منتنة ! . .[2] » . . . « إن الله ، عز وجل ، اذهب عنكم عبية - (بضم العين وفتح الباء : الكبر) - الجاهلية وفخرها بالآباء . . .[3] » . . و « من قاتل تحت راية عمية - (بضم العين وكسر الميم المشددة وفتح الياء المشددة : الأمر الأعمى والمعمى ، لا يستبين وجهة) -

---

(١) (تهذيب تاريخ ابن عساكر) ج٢ ص ١٨٩ . طبعة دمشق .
(٢) رواه البخاري والترمذي .
(٣) رواه أبو داود .

يغضب لعصبة ، او يدعو الى عصبة ، فقتل فقتلة جاهلية ! . . . وليس من أمتي ! . . [1] . .

والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يفرق ويميز في هذا الباب من الأحاديث بين حب الانسان لقومه ، والولاء لهم ـ وهو مشروع ، والناس مدعوون اليه ـ وبين الاعانة على الظلم عصبية وتعصبا . . فالأول : ولاء للقوم ، يدعو اليه الطبع ويرضى عنه الرسول ، والثاني منهي عنه ، اذ فيه نرى عصبية الجاهلية ونعراتها . . وعندما يسأل « واثلة بن الأسقع » الرسول :

ـ يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ . . . ـ (يجيبه) .
ـ لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ! »[2] .

ذلك هو معنى « العصبية » الذي نهى عنه الرسول ، لأنه بشر بمضمون حضاري انساني مستنير للعروبة ، بل وجعل العدل شرطا لانتصار الإنسان لقومه ، فخطا بذلك على درب الفكر القومي المستنير الى الأمام الى ما هو أبعد وأرقى مما صنعت دعوات قومية كثيرة في العصر الذي نعيش نحن فيه! . .

* ولم تقف التجربة الإسلامية بهذا التطور عند حدود الفكر ، بل وضعت هذا الفكر في الممارسة والتطبيق ، وذلك عندما نهضت باقامة تنظيم « اجتماعي ـ قومي » جديد « للأمة السياسية » في الدولة الجديدة . .

فالرعية و « الأمة السياسية » في دولة المدينة كانت عربية كلها ، ولم تكن كلها مسلمة ، أي أن المعيار القومي كان ملحوظا في تكوينها . . ودستور هذه الدولة ، الذي سمي في مصادر التاريخ بـ (الصحيفة) وبـ (الكتاب) يذكر انها ضمَّت ، مع المهاجرين ، قبائل المدينة ، بقطاعاتها التي أسلمت وقطاعاتها التي ظلت على يهوديتها ، فكان فيها : « بنو عوف » و « يهود بني عوف » و « بنو

---

(١) رواهما مسلم .
(٢) رواه ابن ماجه وابن حنبل .

الحارث » و « يهود بني الحارث » ، و « بنو ساعدة » و « يهود بني ساعدة » ، و « بنو جشم » و « يهود بني جشم » ، و « بنو النجار » و « يهود بني النجار » و « بنو الأوس » و « ويهود بني الأوس » . . ونص هذا الدستور أيضا على أن المسلمين من رعية هذه الدولة يكونون أمة واحدة من دون الناس ـ وهي أمة الدين ـ على حين يكونون مع العرب المتدينين باليهودية « أمة واحدة » كذلك ، هي « أمة السياسة والقومية » ! . . و بعبارة ذلك الدستور : « . . المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس . . . وان يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ! . . »[1]

فالطابع القومي ، الذي يعتمد العروبة ، بالمعنى الحضاري ، ملحوظ هنا في تحديد رعية الدولة العربية الإسلامية الأولى ، ولا يمكن لعين باحث أن تغفله ، خصوصا اذا علمنا أن هذه « الأمة ـ الجديدة ـ الواحدة » قد شملت مع ذوي الأصول العرقية العربية « الأحلاف والموالي والأتباع » ، وهم الذين أصبحوا عربا باللغة والولاء للجماعة القومية العربية ، وان كانوا قد انحدروا من أصول عرقية غير عربية . .

ولقد برز هذا المعنى ، وتأكد أيضا في التطبيق ، بذلك التنظيم « القومي ـ الاجتماعي » الذي أدخلت به « الموالي » ـ وهم الذين تعربوا حضاريا ، ولم يكونوا عربا بالجنس ـ أدخلتهم به هذه الدولة في صلب التنظيم الواحد للامة الواحدة . . واذا كانت دولة المدينة قد جعلت « القبيلة » اللبنة الأولى في « الأمة الواحدة » ، بعد أن كانت ، قبل الأسلام ، كيانا سياسيا واداريا واجتماعيا مستقلا ، فانها ، في هذا التنظيم ، « دمجت » موالي كل قبيلة في قبيلتهم ، فأصبحت القبيلة ليست فقط « العرب بالعرق والجنس » وانما « العرب باللغة والهوية الحضارية والقومية » . . وتوالت أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تدعو وتأمر وتشرع لهذا التنظيم « القومي ـ الاجتماعي »

---

(١) (نهاية الأرب) ج ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ .

الجديد . . « **مولى القوم منهم** »[1] . . « **الولاء لحمة كلحمة النسب ، لايباع ولا يوهب** » . .[2]

هكذا تغير مفهوم « العربي » ومضمون « العروبة » ، فلم يعد المعيار فيهما : الجنس والعرق ، وانما أصبح المعيار هو : اللغة والحضارة ، والباب الى اكتساب ميزات « الأمة الجديدة هو الولاء لها ولما اكتسبت من قيم جديدة وفكر جديد ، ومن ثم فقد ضمت هذه « الأمة » وعلى قدم المساواة ، كل « العرب » ، بهذا المفهوم الجديد ، والمعيار الإنساني الحديث ، سواء منهم أولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية أو أولئك الذين كانوا في الأصل فرسا أو روما أو زنجا أو من الأحباش . .

ولقد اتسع الأفق والنطاق بهذا التنظيم « القومي ـ الاجتماعي » بعد أن أدخلت الفتوحات في حدود الدولة مناطق أخرى لم تكن عربية من قبل ، فوجدنا عمر بن الخطاب (٤٠ق . هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤ م) يكتب الى عامله بالعراق : « . . وانظر من قبلك من الحمراء ـ (الموالي ذوي الأصول الفارسية) ـ فالحقهم بقبائلهم ، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة ، فأجبهم ، وسو بينهم وبين غيرهم . . » .

بل إن قصة « الأعراب » ـ عرب البادية ، غير الحضريين ـ مع هذه الدولة العربية الاسلامية الأولى ، وعلاقتهم السياسية بها ، هي الاخرى دليل آخر على هذا الذي نقول . . فهم قد « أسلموا » بمعنى أنهم أطاعوا وانقادوا وانخرطوا في هذا البناء « السياسي ـ القومي » الجديد ، وخاضوا المعارك وشاركوا في الغزوات تأسيساً لهذه الدولة ودفاعا عنها . . فعلوا كل ذلك دون أن يكونوا « مؤمنين » بعقائد الدين الجديد وشريعته ، « فالايمان » يقين وتصديق قلبي ، وهو ، بالقطع ، أخص من « الاسلام » . . والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه الحقيقة فيقول : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولمّا يدخل

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه ابو داود والدارمي .

الإيمان في قلوبكم ! ﴾[1] . . فهم ، إذن ، جزء لا يتجزأ من « الأمة القومية » التي اسست وبنت الدولة العربية الإسلامية ، وان لم يكونوا من « الأمة المؤمنة » بعد الدين الجديد . .

ومثل « الأعراب » في هذا الأمر مثل « المؤلفة قلوبهم » . . فهم عرب أسهموا في بناء الدولة القومية ، لقاء نصيب تقرر لهم في مصارف الأموال ، وذلك دون أن يكونوا « مؤمنين » بالدين الجديد . . فهم كانوا من « أمة السياسة » و « قوم العرب » دون أن يكونوا من « أمة الدين » . . .

هكذا نهض الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهكذا نهض الاسلام بهذا الانجاز القومي العربي الجديد . .

وهنا . . لنتأمل رقمين لعامين . . ولنتأمل حال الجماعة العربية في كل منهما . . .

* سنة ٥٧١ م . . عام غزوة الفيل . . عندما أحدقت الأخطار والتحديات بالجماعة العربية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكاد الأحباش أن ينتزعوا القلب والوسط أيضا ويحتووه . . وعندما كان العربي فريسة مهيضة الجناح ، يتخطفه الأعداء وينوشونه فينهشونه . . .

* وسنة ٦٣٢ م (سنة ١١ هـ) . . عام وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم . . عندما أصبحت العرب « أمة » ، وغدت لهذه « الأمة » « دولة » ضمت شبه الجزيرة العربية بأسرها . .

هنا ، وفي الأحد عشر عاما التي امتدت من عام الهجرة إلى وفاة الرسول ، تغير اتجاه الريح ، واستدار التاريخ فيمم وجهه شطر هذه الأمة الجديدة . . فبعد أن كانت مزقا وأشلاء يتخطفها الأعداء ويفرضون عليها التحديات ويهددونها بالفناء . . استيقظت روحها ، فأثمرت خير ما في معدنها الأصيل ، واختلج جسدها فأبرز قواه الكامنة وعوامل المقاومة فيه ، وكان ذلك

---

(١) الحجرات : ١٤ .

اجابة إيجابية على التحديات التي فرضها عليها الأعداء . . وسجل التاريخ منذ ذلك التاريخ : **أن العرب بتجديد الذات وتوحيدها ، وبشحذ عوامل المقاومة للخطر وامكانياتها الكامنة وبتطوير الفكر وتحديثه ، قد استطاعوا أن يتوحدوا ، وأن يتولوا زمام القيادة في الشرق بدلا من الفرس ، بل وأن يزحفوا مطاردين كلا من الفرس والروم البيزنطيين !** . .

* * *

وعندما زلزلت وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يقين الأعراب الذين يسكنون غير المدينة ومكة والطائف ، فظنوا إن التوحيد الديني شيء ، وهم لم يغيروا عقائدهم فيه ، وأن الوحدة القومية شيء آخر ، فخلعوا عن أنفسهم تبعاتها ، بعد وفاة النبي الذي دعا اليها وانجزها . . عندما ارتدت قبائل الأعراب هذه عن وحدة الدولة العربية ، وخيل لعمر بن الخطاب ان لا حق لدولة الخلافة أن تقاتلهم ما داموا على التوحيد الديني ، فقال للخليفة ابي بكر الصديق (٥١ق . هـ ١٣ هـ ٥٧٣ - ٦٣٤ م) : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إلّه الا الله ؟! لقد قال الرسول : من قال : لا إلّه الا الله فقد عصم مني دمه وماله ؟! . . كانت بصيرة ابي بكر وعبقريته السياسية وحسه القومي قد هداه الى القرار التاريخي الذي جعل تاريخ هذه الامة يسير في الاتجاه الصحيح . . لقد ربط ما بين التوحيد الديني ، والوحدة القومية والسياسية ، ورأى في وحدة دولة الخلافة « حقا » يستتبعه ويقتضيه التوحيد في الدين ، وأعلن أن الوحدة القومية والسياسية والادارية لم ولن تكون رهنا بحياة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وانما هي طريق بدأ العرب ، خلف الرسول ، السير فيه ، ولا بد لهم من مواصلة سيرهم فيه . . فقال لعمر : « والله لو مُنعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم عليها . . » .

فنهض المسلمون فحصنوا المدينة كي تصمد امام هجوم الأعراب المرتدين ، وتراجعت خلافات الصحابة حول الخلافة ، فبايع علي بن أبي طالب (٢٣ق . هـ ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١ م) ورهط من بني هاشم لأبي بكربالخلافة بعد

أن أبطأت بيعتهم له عدة شهور . .[1] وخرج أبو بكر الى « ذي القصة » فعقد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً زحفوا بجيوش عربية مسلمة داعين الى عودة الوحدة القومية التي بناها الرسول . . .

١ ـ خالد بن الوليد (٢١ هـ ٦٤٢ م) لقتال طليحة بن خويلد الأسدي ، ومن معه من قبائل : اسد ، وغطفان ، وطيء، وعبس ، وذبيان . . .

٢ ـ وعكرمة بن ابي جهل (١٣ هـ ٦٣٤ م) لقتال مسيلمة بن حبيب ـ (الكذاب) ـ الذي قاد بني حنيفة باليمامة ، بين نجد والأحقاف . .

وهو الذي كانت ردته نموذجا للردة عن الوحدة القومية عندما يغلفها قائدها بستار مهلهل من « التنبؤ » والادعاء الكاذب للنبوة ، على حين كانت تفضح الأهداف السياسية هذا الادعاء . . فهو الذي برر لأصحابه ردتهم عن الولاء لدولة المدينة بقوله في سجعه : « يا ضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، **لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون** » ! . فهو هنا يعلن ، صراحة أن الهدف هو كسر وحدة الدولة .

٣ ـ والمهاجر بن أمية (بعد ١٢ هـ ٦٣٣ م) لقتال الأسود العنسي (عبهلة) باليمن ، وقيس بن المشكوح ، وكندة بحضرموت . . .

٤ ـ وخالد بن سعيد بن العاص (١٤ هـ ٦٣٥ م) لقتال أهل الحمقتين الذين ارتدوا على مشارف الشام . .

٥ ـ وعمرو بن العاص(٥٠ق . هـ ـ ٤٣ هـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤ م) لقتال المرتدين من قضاعة ووديعة والحارث . .

٦ ـ وحذيفة بن محصن الغلفاني لقتال المرتدين من اهل دبا . .

٧ ـ وابن هرثمة (بعد ٢٠ هـ ٦٤٠ م) لقتال مهرة .

---

(١) انظر كتابنا(الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية) ص ٨١ ـ ٨٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

٨ ـ وشـرحبيـل بن حسنـة (٥٠ق . هـ ـ ١٨ هـ ٥٧٤ ـ ٦٣٩ م) لقتـال قضاعة .

٩ ـ ومعن بن حاجر لقتال سليم ومن معهم من هوازن . .

١٠ ـ وسويد بن مقرن لقتال تهامة ، باليمن .

١١ ـ والعلاء بن الحضرمي (٢١ هـ ٦٤٢ م) لقتال اهل البحرين . .

ولقـد استطاعت هـذه الجيوش ، في أقـل من عام ، أن تعيـد الى الدولـة وحدتها ، وأن تقضي على فتنة الانشقـاق القومي . . وكـان فتح « الحيـرة » سنة ٦٣٣ م (سنة ١٢ هـ) بعد أول لقاء مسلح بين الـدولة العـربية وفـارس إيذانـا بعـودة وحدة شبـه الجزيـرة إلى ما كـانت عليه في اواخـر حياة الـرسـول ، عليـه الصلاة والسلام ، وبشروع هذه الدولة في نقل الصراع الى موقع جديد ، تطارد فيـه الدولـة الفارسيـة ، وتستخلص منها منـاطق نفوذهـا التقليديـة في « الحيرة » حيث طالما حكمت و تحكّمت في العرب اللخميين[1] . .

* * *

ثم واصلت الـدولة العـربية ـ بعـد أن عـادت لهـا ولجمـاعتهـا الـوحـدة ـ صراعها مع الامبراطوريتين اللتين احتكرتا السيادة عـلى المنطقـة لعدة قـرون . . فارس والروم البيزنطيين . . . فكانت فتوحاتها الشرقيـة في العراق العـربي تحريراً من سيطرة فارسية ظالمة . . . وكان فتحها لفارس ذاتها ثأراً لتاريخ قديم ومرير ، وتأمينا لبـوابتها الشـرقية ، وانهاء لنـظام اجتماعي فـاسد ، غـدا فساده ثغـرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة البيزنطيين ، وغدت مظالمه قيـدا يحول دون اهـل فـارس ودون الابـداع الحضـاري الـذي أهَّلهم لـه التـاريـخ والتـراث الـذي يملكون . . وجميع أسباب هذا الفتح سياسية ، تدخل في باب الصراع القومي ، لا الديني ، لأن العرب المسلمين لم يفرضـوا عقائـد الاسلام بـالقتال ، ومـا كان

(١) انظر أخبار حروب الردة في (تاريخ الـطبري) ج٣ ص ١٣٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ طبعـة دار المعارف . القـاهـرة . و(نهايـة الأرب) ج١٨ ص ٧٢ ، ٧٣ وج ١٩ص ٤٩ ، ٦١ ـ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ـ ٧٨ ، ٨٠ . .

الإيمان ـ وهو تصديق قلبي ويقين للضمير المستكن في النفس ـ أن يتحصل بالإكراه . . لقد كانت فتوحات سياسية وقومية ، شارك فيها مع العرب المسلمين الفاتحين كثيرون من أهل البلاد المفتوحة ، وهم على دياناتهم القديمة ، وسقطت عنهم لهذه المشاركة تلك الضريبة الزهيدة (الجزية) التي فرضت على المخالفين في الدين ، ممن هم في سن الجندية ، كبدل عن الجندية ، اذا استدعت ظروف الأمن في القتال أن لا يشتركوا فيه أو اذا أرادوا هم ذلك[1] . . .

وكذلك صنعت الدولة العربية على الجبهة الغربية مع الروم البيزنطيين . . فالحرب التي خاضتها في الشام ، وفي مصر ، كانت جميعها ضد الحاميات والجيوش « البيزنطية ـ الأجنبية ـ المستعمرة » ، ولم يحدث في موقعة واحدة أن قاتل اهل البلاد ، وهم عرب أو قبط ذوو صلات سامية ، ضد الجيش العربي الفاتح . . بل على العكس من ذلك ، فلقد ساعد قبط مصر جيش عمرو بن العاص في حربه ضد جيش الاحتلال البيزنطي . . وطلب أهل القدس من عمر بن الخطاب في العهد الذي اعطاه لهم ان يخرجوا من مدينتهم ثلاث فئات :

١ ـ الروم . . وهم الغزاة المستعمرون . .

٢ ـ واللصوص . . الذين كانوا يهددون أمن السكان . .

٣ ـ واليهود . . الذين كانوا قد تحولوا الى عملاء للروم الغزاة ![2] . .

أما العرب ، أهل البلاد الأصليون ، وكانوا نصارى يشاركون الروم في الدين ، ويختلفون فيه مع المسلمين ، فقد وقفوا مع « قومهم » المغايرين لهم في الدين ضد « غزاتهم » المتفقين معهم في الدين ، فجسدوا بهذا الموقف الطابع القومي لهذا الفتح العربي المبين . . ولقد تصاعد هذا الموقف القومي ، أحيانا ،

---

(١) انظر في المعاهدات التي تثبت اسقاط الجزية عن الذين قاتلوا مع المسلمين ، وهم على دينهم القديم : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ٣٢٦ ، ٣٢٨ ـ معاهدة أهل « جرجان » ومعاهدة « آذربيجان» جمعها وحققها محمد حميد الله الحيدرآبادي طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٤٥ .

إلى درجة الاشتراك ، مع الجيش العربي المسلم ، في قتال الروم . . ففي موقعة « اليرموك » الحاسمة قاتل اهل « حمص » ، وهم على نصرانيتهم ، مع الجيش المسلم ، خلف أبي عبيدة بن الجراح (٤٠ق. هـ ١٨هـ ـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩ م) ضد الروم البيزنطيين . . وكذلك فعل الجراجمة ، سكان « الجرجرمة » ، بشمالي سوريا ، عندما قاتلوا ، وهم على نصرانيتهم ، مع الجيش العربي المسلم ، تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهري (٢ق ـ هـ ٤٢ هـ ـ ٦٢٠ ـ ٦٦٢ م) ضد البيزنطيين المسيحيين ! . . لقد صنع عرب الغرب والشمال ما صنعه عرب الشرق ، المناذرة ، عندما حاربوا مع الجيش العربي المسلم ضد الفرس ، فوقفوا مع « قومهم » ضد « عدوهم » ، بصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف في الدين[1] . .

ومرة أخرى ، لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٦٥١ م (سنة ٣١ هـ) . .

ففي هذه السنة قتل « يزدجرد » (٦١٧ ـ ٦٥١ م) آخر أكاسرة الفرس الساسانيين . بعد أن انهارت امبراطوريته أمام العرب الفاتحين . . وقبلها كان العرب قد فتحوا كل الشام ومصر وطرابلس الغرب ـ (ليبيا) ـ (ثم استكملوا تحرير المغرب كله سنة ٦٩٧ م سنة ٧٨ هـ) ـ فأزاحوا عن الشرق نير الروم ، كما أزاحوا عنه نير الفرس ـ بل ونقلوا مواقعهم إلى قبرص ، وبدأ تهديدهم للقسطنطينية ذاتها . . حدث ذلك كله في ثلاثين عاما من تاريخ الدولة العربية الاسلامية (١ ـ ٣٠هـ ـ ٦٢٢ ـ ٦٥١ م) . . . ففي هذه السنوات :

* أقام العرب دولتهم . . وبنوا ، بمضمون حضاري ومستنير ، كيانهم القومي الواحد . . .

* واستجمعوا طاقاتهم الكامنة ، وقوى المقاومة المستكنة ، وطوروا الفكر ، وجددوا المفاهيم ووسعوا الآفاق .

* ونهضوا ، تحت رايات الاسلام القومية فحرروا وطنهم واخوانهم ، والشرق كله ، من سيطرة الفرس والروم .

---

(١) انظر : ابو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨، ١٣٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

* وبنوا امبراطورية عربية ، تعددت فيها العقائد والاديان ، وأصبحت وعاء تمت فيه عملية التعريب ، التي اتسعت دائرتها فشملت سكان الوطن العربي الذي نعيش فيه الآن . .

* ودخلوا بالتاريخ ، أو دخل بهم التاريخ الى طور حضاري جديد . . أصبحت لهم فيه قيادة الشرق ، بعد أن كانت للفرس حينا ، وللاغريق حينا ، وللبيزنطيين أحيانا أخرى . . فأين هي خريطة الأرض العربية « الحرة ذات السيادة » سنة ٥٧١ م ـ عام الفيل ـ من خريطتها بعد ثلاثين عاما من عودة الروح القومية إلى كيانهم القومي الجديد ؟! .

لقد كانت تلك هي اجابة الأمة العربية على التحدي الذي واجهته ، والذي بلغ ذروته سنة ٥٧١ م عام الفيل ! لكن الأعداء كثيرون . . ومتربصون . . . والليالي من الزمان حبالى . . يلدن الكثير من التحديات ؟! . .